

النواحى الاجتماعية

في النهضة والحركات السياسية

لحضرة صاحب المعالي محمد على صلوبه باشا

وزير الدولة للشؤون البرلمانية

لكل حركة سياسة نواح إصلاحية يجب أن تلازمها وأن تستفيع منها . والحركة السياسية التي لا تتجه الى تلك النواحى أو لا تهنى بها حق العناية إنما هي حركة مشكوك في قيمتها ونتائجها . إذ على قدر الاشتباك والتفاعل بين الأصل والفروع يكون نمو النهضة وصلاحها للإنتاج وقابليتها للبقاء .

وحركتنا السياسية التي قننا بها سنة ١٩١٩ قد صحبتها أغراض إصلاحية ولذلك أثمرت بعض الثمرات الباقية في ميدان الاقتصاد والاجتماع ، وهي لا تزال تثمر وإن يكن إثمارها بطيئا ومحتاجا الى كثير من " التطعيم " والتوجيه .

ففي الميدان الاقتصادي عرفنا بنك مصر والشركات التي أنشئت حوله ، ورأينا التاجر المصرى قد نهض ووجد من الجمهور الإقبال الذى لم يكن يلقاه قبل ذلك . وأصبح للشبان وجدان اقتصادى ينهم من وقت لآخر الى واجبات وطنية تزيد ثروة مصر ورفاهيتها ويدفعهم الى تحقيق مشروعات قومية تحفظ شيئا من الثروة الأهلية بين أيدي المواطنين :

وكذلك الشأن في الميدان الاجتماعى ، فإن المرأة المصرية التي اشتركت في الكفاح السياسى قد نهضت نهضة اجتماعية . كان من أثرها دؤلاء المثات من الطالبات اللاتي يغشين مدرجات الجامعة وأولئك الألوف من التلميذات اللاتي يتعلمن في المدارس وما الى هذا وذلك من نشاط اجتماعى آخر نشأه في الجمعيات النسوية المختلفة .

وأقل من هذا وضوحا وإن لم يكن أقل أثرا، ذلك التبدل في نفسية الأمة . وهو تبدل بيسيكولوجى خطير ، فلقد كان النحود السياسى يبعث نهمودا نفسيا يضعف الاقدام على المشروعات ويزعزع الثقة بالمواطنين ويعمم الشك في قيمة التضامن والتعاون . أما بعد سنة ١٩١٩ فقد صرنا أكثر تناؤلا وأشد رغبة في العمل المشترك وأوفر قدرة على الإقدام والمغامرة .

كل هذا صحيح لا يرقى اليه الشك . ولكن قد يكون من الخير أن نقابل بين نهضتنا السياسية والنهضات السياسية الأخرى في بعض البلاد كالهند والصين وتركيا وغيرها ، وأن نوازن بين ما خلفته هذه وتلك من الآثار ، فإن هذه المقابلة وتلك الموازنة تفيداننا في التعرف النواحي التي فاتتا أن نستغل نهضتنا فيها على الوجه الأكمل ، وتبينان لنا كيف أن الزعماء السياسيين والقادة الشعبين هناك لم يقصروا نشاطهم على الكفاح السياسي بل وجهوه أيضا إلى الإصلاح في كل ما رأوا أنه في حاجة إلى الإصلاح .

ففي الهند حركة سياسية قام بها الزعماء تيلاك وبارنجي والشقيران شوكت على ومحمد علي والمها تما غاندى وجوهري لال نهرو . وقد نجحت هذه الحركة في إقامة الحكم النيابي في أقاليم الهند البريطانية ولا تزال سائرة في كفاحها في سبيل الاستقلال . ولكن هذا النشاط لم ينحصر في ميدان السياسة وحده بل تجاوزه إلى الميادين الاجتماعية والاقتصادية فأصبح يتناول المسائل الآتية :

١ — السعى لإيجاد المساواة بين المنبوذين وسائر الهندوكيين . وقد نجح هذا السعى إلى حد ما ففتحت للنبوذين المعابد التي كانت مقفلة في وجوههم والتي كان دخول أحدهم فيها يعتبر تدنيسا لها .

٢ — تنفيذ عقيدة النجاسة التي تلازم عقول طبقة الأنجاس . وها هو ذا الزعيم غاندى يصدر مجلة أسبوعية اسمها " هاريبان " أى " المنبوذون " لنشر الدعوة إلى هجر تلك العقيدة والأخذ بشكرة التساوى بين أفراد الطوائف رغم اختلاف الأديان .

٣ — تعمير المنازل والمناجى في القرى لتنمية ثروة الفلاحين .

٤ — خفض على الاكتفاء بالأقمشة الهندية المصنوعة بأيدي الفلاحين ، والإعراض عن المنسوجات الأجنبية .

٥ — تعمير التعليم " الاستكفائي " . أى أن يتعلم التلاميذ ويعملوا ، فما يصنعونه من السلع يبيع ليسد نفقات تعليمهم ، وبذلك يستغنون عن الدولة التي تفسن عليهم بهذا التعليم . هذا في الهند . أما في الصين فما تولى الزعيم " سين يات سن " الحكم حتى أخذت البلاد تغل بحركات مختلفة في الثقافة والاجتماع والاقتصاد والصحة العامة . فقد أبدلت بالحروف الصينية حروف هجائية مبسطة لا يستغند التلميذ وقتا طويلا في تعلمها . وهذا بلا شك كسب عظيم للتفكير والثقافة ، فإن اللغة الصينية كانت تكتب برموز بل برسوم يخيل للناظر إليها أن الطفل يجب أن يمهر في الرسم أولا ثم يأخذ بعد ذلك في كتابة الحروف الهجائية . ولقد يسر هذا الهجاء الجديد على الصبية القراءة حتى لتجد في أيديهم المحف يتلونها في سهولة لم يعرفها أسلافهم من الناشئين .

وعندهم أيضا نهضة المرأة. فقد خرجت المرأة إلى ميادين الحياة العامة وتعلمت، ونبذت مآدرجت عليه من العادات والتقاليد القديمة التي كانت تؤذيها في جسمها وعقلها. ولقد أخذت الصين بعد ذلك تتدرج في الصناعات الحديثة، فأنشأت المصانع الآلية الكبيرة التي تبشر الصناعة الصينية بمستقبل مجيد. ولعله من المفيد أن نذكر هنا أن زوجة الجنرال شيانج كاي شيك رئيس الحكومة قد ألقت جمعية تسمى "الحياة الجديدة" وهذه الجمعية مثأت الفروع في أنحاء الصين. وهي تدعو إلى النظافة والطهارة ومحاربة المخدرات والإقبال على العمل والخدمة العسكرية.

وأما في تركيا فإن النهضة التي قام بها كمال أتاتورك إذا وزن كل من نواحيها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية بميزان فلعل الناحية السياسية منها على عظمتها لا تزيد قدرا على النواحي الأخرى. بل لعل أتاتورك قد بالغ في هذه النواحي الأخرى التي لا تحتاج في شرحها إلى إسهاب.

ونستطيع أن نستمر في ضرب الأمثال في الأمم الشرقية والغربية لنثبت أن في كل حركة سياسية بذورا ثم ثمرات في الثقافة والاقتصاد والاجتماع ويمكن أن تؤلف الكتب عن إيطاليا وغير إيطاليا في هذا الشأن. ولكن حسب القارئ أن يعرف أن حركة موسوليني لم تنجبه إلى إعلاء مكانة إيطاليا في الميدان السياسي بقدر ما اتجهت إلى إحياء الصناعات ومقاومة العطالة ومكافحة الخمول الوطني وتنمية الانتاج القومي وتخفيف المستنقعات واصلاح خمسة ملايين من الأفدنة صار الإيطاليون يزرعونها ويعيشون منها دون أن تأكل أجسامهم جرائم الملايا وتطمس عيونهم آفات التراخوما. كما أنه عني باخراج موسوعة في ثلاثين مجلدا جملت الثقافة العامة في تناول أفقر الناس وأقلهم حظا من التعليم.

والآن وقد عرضنا لكل هذا يصح أن نسأل أنفسنا: هل تشعبت نهضتنا السياسية إلى مثل هذه النواحي الاجتماعية والاقتصادية والثقافية كما تشعبت النهضات في الهند والصين وتركيا وإيطاليا وغيرها؟ وبعبارة أخرى: هل كان لحيثاتنا السياسية في تلك الميادين الإصلاحية أثر يعادل أثرها في ميدان السياسة؟

لقد يكون من التجني على الحق أن ننكر جهود بعض هذه الهيئات في مختلف ميادين الخدمة القومية. وتقدير هذه الجهود متروك للرأى العام، بل متروك للتاريخ الذي لا يحابي ولا يكذب. ولست أسقط من حسابي أن النضال السياسي كان يشغل الجانب الأكبر من قوى أحزابنا السياسية وأن هذه الأحزاب كانت معظم الوقت مضطرة إلى حصر كثير من جهودها في تدعيم كيائها الحزبي ونشر دعايتها في البلاد.

ولكن الآن وقد انتهت الأحزاب من النضال في سبيل تحقيق الأمان الوطنية أو بلغت من هذا السبيل غاية اطمأن إليها بالها، الآن وقد ذهب الماضي بحسناته وسيئاته، لم يبق

أمام هيئاتنا السياسية إلا تدعيم الاستقلال وتثبيت بنيانه بتنظيم الحياة القومية ورفع مستواها في جميع نواحيها . وهذا عبء لا يجوز أن يلقى على كاهل الحكومة وحدها بل جو قسمة بينها وبين الشعب ممثلاً في زعمائه ومختلف هيئاته .

أما الحكومة فعاملة غير خاملة ، وهي تسعى إلى الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي والثقافي بالقدر الذي تسمح به مواردها وبالسعة التي تسمح بها طبيعة الأشياء . فهل تنبه الأحزاب من جانبها إلى الواجب المفروض عليها ، وهل تصح عزيمتها على القيام بهذا الواجب ؟

إن كل برنامج من برامج أحزابنا السياسية محشو بالمسائل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ومملوء بالعهود العظام والوعود الضخام ، فهل تظل الأحزاب مولية الناحية السياسية كل نشاطها واهتمامها تاركة المحل الثاني لما بقي من نواحي الرق القومي والتقدم الوطني ؟

إن مصر تجتاز اليوم مرحلة من أدق مراحل تاريخها الاجتماعي . ذلك أنها بأوضاعها السياسية والإدارية والاقتصادية تبدو في مظهر نفخ من مظاهر المدنية العالمية والرق الإنساني الحديث ، مع أن حالتها الاجتماعية لا تتفق في الحقيقة مع هذا المظهر الفخم إذ هي أقل منه بكثير . ومن ثم فقد صار من واجب الحكومة والشعب أن يتلمسا الوسائل لعلاج هذه الحالة الاجتماعية حتى ترتفع إلى مستوى مظهرنا العام فتماشيه في أوضاعه ونواحيه .

تلك مسألة جديرة بالعناية والدرس أرجو أن يوليها الزعماء قسطاً من تفكيرهم لا يقل عن ذلك الذي يخصصون به تشكيلاتهم السياسية ومساعدتهم الحزبية وإلا بقيت نهضتنا القومية بعد فوزنا بالاستقلال عراكاً لا مبرر له أو جهاداً في غير عدو أو نضالاً في سبيل تقديم شخص على شخص وتغليب هيئة على هيئة .

ألا فلتأس الماضي ولنول وجوهنا شطر المستقبل ، ولتركز جهودنا في دائرة الإصلاح العام . ولنعلم أن الشعوب لا ترقى بالمنازعات والمهارات وإنما ترقى بغنى أفرادها ، وثقافة أبنائها ، ويسر فلاحها ، ورخاء عمالها ، وأن في ميدان العمل لتسعا للجميع .

محمد علي علوبة